الباحث: أيوب عماري(*)

مراجعة وإشراف: أ.د.منير بهادي

الحقيقة في منهجها لا في متنها، في تقنيتها التي بها نسبك المعنى ونعقله. وهو ما يتماهى مع إرادة المناهج الما بعد حداثية، والتي انتشر كل فريق منها في بقعة من أصقاع الأرض بعد أن اندثرت فلسفات النسق. فنجد الفينومنولوجيا في ألمانيا والوضعية المنطقية في البلدان الأنجلوساكسونية والوجودية والبنيوية في فرنسا، والشكلانية والأسلوبية في روسيا، فضلا عن منهج التحليل النفسي والتاريخي والاجتماعي والتكاملي .. كمناهج عابرة عبر الأوطان، إذ يمكن عبر هذا تكوين جغرافيا للميتودولوجيات المعاصرة والتي يكشف لنا السبر الجينيالوجي عن عدم وجود فجوة بينها وبين الميتودولوجيات السابقة. فهنالك تناص قوي بين الفينومنولوجيا والهيرومنطيقا، وبين الفلسفة المثالية لـــ"**شيلنج**" و"**فختة**" في ألمانيا، وبين التجريبية والتحليل الوضعي المنطقي عند الأنجلوسكسونيين. ونحن هنا نطبق مفهوم التناص لسيميائية "**جوليا كريستيفا**"[1] *Julia Kristeva* أو الحوارية *dialogisme* كما يعرفها "**ميخائيل باختين**" *Mikhaïl Bakhtine*، بحيث تكون المناهج المعاصرة صدى للكثير من المناهج التي ظهرت في الفلسفة الحديثة.

ففي القرنين السابع عشر والثامن عشر ظهرت ثلاث مناهج كانت هي الأم في الشجرة الجينيالوجية للمناهج المعاصرة ألا وهي المنهج العقلاني مع "**ديكارت**" و"**سبينوزا**" و"**لايبنتز**" والمنهج المثالي الألماني مع "**هيجل**" و"**شيلنج**" و"**فختة**" والتجريبية الإنجليزية مع "**فرنسيس بيكون**" و"**جون لوك**" و"**ديفيد هيوم**".

***- مخبر الفلسفة وتاريخها- جامعة وهران2.**

1- أنظر: نوافذ، مجلة دورية تعني بترجمة الأدب العالمي، النادي الثقافي الأدبي بجدة-المملكة العربية السعودية، العدد 35، مارس 2006 ص 24.

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

ولقد وقع اختيارنا على الميتودولوجيا **السبينوزية**، لما للمنهج السبينوزي من خصوصية فلقد رصف "**سبينوزا**" طريقا متميزا من أجل الوصول إلى الحقيقة والسعادة معا. لهذا نتساءل عن الطريقة التي اتبعها "**سبينوزا**" من أجل فهم الطبيعة والنص؟ وماهي خصائص الميتودولوجيا السبينوزية وكيف استقبلت في الفضاء الفلسفي؟ و ماهي حدودها ؟

أولا: ابستيمية الميتودولوجيا السبينوزية :

أ- المناهج التي استخدمها سبينوزا:

إن الميتودولوجيا السبينوزية تجعل من نظرية وحدة الوجود مشروعا ممكنا، ولقد حاول "**سبينوزا**" في كتابه: "رسالة في إصلاح العقل" أن يضع نظرته في المعرفة كامتداد للتيار العقلاني. فميز بين ثلاثة ضروب من المعارف، فهناك معرفة من الجنس الأول، أي معرفة بالسمع، أو بالذاكرة، أو بالتجربة الحسية، أو بالمخيلة، وفي المرتبة الثانية هنالك المعرفة الاستنتاجية، والرياضية والعقلية، وفي المرتبة الثالثة هنالك المعرفة الحدسية[1].

وكما يقر بأن الأفكار الواضحة تستمد وضوحها من ذاتها لا من العالم الخارجي، إذ تكون الفكرة حقيقية بمقتضى دلالة باطنية محضة.[2] ولا بد من منهج نلجأ إليه لكي نصل إلى المعرفة المتميزة، والتي تتناول هذا العالم لنفهم نظامه ووحدته. لذا لا جرم إن كان "سبينوزا" يحدثنا بلغة الفاهم المستوعب للحركة الفكرية النهضوية التي سبقته، إذ يقول بأن "كل ما يحدث هو ناتج عن نظام أبدي وقوانين حتمية في الطبيعة،[3] وسعادة الإنسان تكمن في معرفة الاتحاد الذي هو كائن بين النفس مع الطبيعة ككل.[4] لذا من أجل فهم العالم بشكل يستبعد أية غائية محتملة، كان لا بد من أن يؤجر "**سبينوزا**"

---

1 **-ALAIN, Spinoza, Gallimard, paris, 1996 p 33**

2**- ALAIN Ibid, p 34**

3 **-Spinoza traité de la réforme de l'entendement, éthique, lettres, trad, André l'écrivain, Flammarion, paris, 2008p 13**

4**- Ibid, p 14**

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مناهج عقلانية وهي ثلاث مناهج متداخلة ومكملة لبعضها البعض: المنهج التحليلي النقدي والمنهج التأويلي والمنهج الهندسي[1].

أ-**المنهج التحليلي النقدي:** يفيد التحليل فك وتفتيت موضوع البحث الى عناصره أو وحداته الأولية، سواء أكان فكرة في الذهن أو قضية من القضايا المنطقية أو جملة من جمل اللغة أو واقعة من وقائع الحياة، أيا كان الغرض الذي يسعى إليه الانسان من وراء هذا التحليل. يحاول "**سبينوزا**" كفيلسوف **ديكارتي** عقلاني تفكيك العالم، معتمدا على الموضوعية والعقلانية والإقناع، رافضا الأسطورة والخرافة والتحليل الغائي، محاولا إقامة تقييم عقلي للأشياء مجزئا المشكلة إلى عناصرها الأساسية، ففي كتابه "رسالة في اللاهوت والسياسة" مثلا، نجده في كثير من الأحيان يقوم بضبط المفاهيم لكي تكون الأفكار واضحة ومتميزة. يقوم بفحص عقلي لتحليل هذه الحدود مقارنا بعضها ببعض، ثم يقارنها بالوقائع ليرى إن كان هناك انسجام وتماسك وتطابق بين هذه الحدود والوقائع، لينقد وينقح. ونموذج ذلك في قوله: "علينا أن نتساءل ما النبي؟ وما الوحي؟ وما مضمونه الأساسي؟ وهكذا بادئين بأكثر الأشياء شمولا، ثم نهبط منها إلى الأفكار الخاصة بكل نبي، ونصل بعد ذلك إلى معنى كل وحي أتى به نبي وكل معجزة ..ولقد بينا من قبل بأمثلة عديدة الاحتياطات التي يجب علينا اتخاذها كي لا نخلط بين فكر الأنبياء والرواة من ناحية، وبين فكر الروح القدس والحقيقة الأصلية من ناحية أخرى."[2] كما يؤكد على قيمة الوثائق والنقد الداخلي فيقول "إن منهجنا قائم على القاعدة التي تنص على أن معرفة الكتاب المقدس تستمد من الكتاب نفسه."[3] كما قام بالتحليل الجغرافي فقال مثلا بأن

1- زين عباس، سبينوزا الفلسفة الاخلاقية ، دار التنوير، د.ط ، 2008، ص 17.
2- سبينوزا، رسالة في اللاهوت و السياسة، تر : حسن حنفي، مكتبة الأنجلو- المصرية ،ط2 ، 1981، ص 250 .
3- المصدر نفسه، ص251.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

"موسى" "لم يكتب مقدمة التثنية لأنه لم يعبر نهر الأردن."[1] و "إن موسى لم يكتب الأسفار الخمسة بل كتبها شخص عاش بعد موسى بقرون عديدة."[2].

ب-المنهج التأويلي: يرى "**نصر حامد أبو زيد**" بأن التأويل جهد عقلي ذاتي لإخضاع النص لتصورات المفسر ومفاهيمه وأفكاره، وهذا مبني على رؤية جديدة للعلاقة بين المفسر والنص، فليست بينهما علاقة إخضاع من الجانب الأول وخضوع من الجانب الثاني فالعلاقة جدلية تفاعلية متبادلة بين الطرفين.[3] ولقد كان نوع من هذا الجدل بين "**سبينوزا**" والنص، فاضطلع على المدراش *midrash*[4] الذي يعد طريقة عند أحبار اليهود لفهم العهد القديم بأسفاره واصحاحاته. ويمكن الاعتبار بأن التأويل الذي عرفوه تأويل تفسيري مغلق، إذ يقرؤون الإنجيل العبري على ضوء الأحداث اللاحقة عليه، ويقرؤون الأحداث الأخيرة على ضوء ما جاء في المرويات العبرية، فهم يأخذون الأحداث المروية ليؤسسوا أطروحة كونية، ثم يستعملون هذه الأطروحة الكونية لتفسير وتأكيد حقيقة الروايات المروية بكل تفاصيلها، مثل أي نشاط هيرومنطيقي، إنه يدخل في الدائرة المغلقة.[5] إلا أن "**سبينوزا**" خرج عن هذا العرف وسلك طريقة تأويلية مبتكرة لمقاربة الأسفار، فهو ينتقل من الفهم الكلي والشامل للمعنى الذي يختزنه النص إلى فهم أجزاء هذا النص فتأويله دوري لكنه ليس تبريري، فنجده يرفض المعجزات ويحاول البحث في الأسس المعرفية والإيديولوجية والتاريخية للوقائع. يمكن أن نعتبر كتابه "رسالة في اللاهوت والسياسة" الذي نشره سنة 1670 والذي يبين فيه بأن حرية التفلسف لا تشكل خطراً على التقوى أو على الأمن والسلام في الدولة، بل أن القضاء عليها قضاء على سلامة

---

1 - المصدر السابق، ص 266 .
2- المصدر نفسه، ص 271 .
3 - نصر حامد أبو زيد، فلسفة التأويل، دار التنوير، بيروت- لبنان ، ط1 ، 1983 ص 6.
4- دفيد جاسير، مقدمة في الهيرومنطيقا ،تر : وجيه قانصو ، منشورات الإختلاف ، الجزائر العاصمة ، ط 1 ، 2007 ، ص 45.
5- المرجع نفسه ، ص:56.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الدولة وعلى التقوى في حد ذاتها.[1] يعد هذا الكتاب نموذج طبق فيه التفسير النقدي التاريخي سابقا في ذلك البروتستانتيين الألمان والجامعات اللائكية أنداك. لذا أعتبر "أوّل العلمانيين اليهود المحدثين" بسبب تلك الروح النقدية في النظر للنصوص المقدسة. لقد جاء هذا الكتاب في سياق أراد فيه "**سبينوزا**" أن يقدم مساعدة للجمهوريين ومحاربة التعصب الكالفاني *Le calvinisme* كما يظهر بوضوح استفادته من التفاسير الجديدة لفلاسفة التنوير،[2] وتشكيكه في ألوهية مصدر الأناجيل. كما نادى بضرورة تطهير الدين من الخرافة وفيه كذلك فصل بين الفلسفة والثيولوجيا، وانتقد المحاولات التلفيقية والتوفيقية بينهما، ففي نظره أن الحقيقة هي غاية الفكر الفلسفي، أما **العقيدة** فلا تفتش إلا عن الطاعة والامتثال والتقوى. وتكمن أصالة "**سبينوزا**" في مقاربته التأويلية للنصوص التي عالجها بنفس الطريقة التي يعالج بها الطبيعة فلقد فاجأ قراءه حينما كتب" إن طريقة تأويل النص لا تختلف عن طريقة تأويل الطبيعة[3].

لذلك يرى بأن قوانين الله الموجودة في الدين هي عينها قوانين الطبيعة فلا فرق بينهما، وهو في ذلك يضارع منهجيا الهيرومنطقيين الألمان كـــ: "**دلتاي**" و"**شيلر ماخر**". كما دافع في هذا الكتاب عن النظام الديمقراطي، فقال: "النظام الديمقراطي هو الأقرب إلى الحرية و العدالة"[4].

ج- المنهج الهندسي: لقد استخدم "**سبينوزا**" المنهج الاستدلالي الرياضي، إذ يمثل كتاب العناصر لإقليدس الأنموذج الصوري لهذا النوع من التفكير. يبدأ "**سبينوزا**" في كتابه علم الأخلاق بقائمة من التعريفات للمفاهيم ثم يردفها بقائمة من البديهيات والمصادرات والقضايا والحواشي واللوازم، ثم يبرهن عليها بطرق رياضية ومنطقية. فيوظف مثلا البرهان بالخلف لتأكيد الكثير من الأفكار، مثل قضية أنه لا يمكن أن يوجد في الطبيعة جوهران أو عدة

1- Spinoza, traité théologico-politique, rad jacqueline lagrée et pierre François moreau, PUF, paris,1999 p 55 .
2- André cresson, Spinoza, PUF, paris, 1950. p67 .
3- Spinoza, traité théologico-politique,ibid p 98 .
4- ibid p 521.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

جواهر من طبيعة أو صفة واحدة،[1] ولنأخذ المثال الموجود في القضية الاحدى عشر من الباب الأول: الله جوهر يتألف من عدد لا محدود من الصفات المعبرة كل واحدة عن ماهية أزلية ولا متناهية- واجب الوجود.

البرهان: إذا نفيتم ذلك فتصوروا أن الله غير موجود/ إن ماهيته إذن لا تنطوي على وجوده/ بيد أن ذلك محال/ إذن فالله واجب الوجود[2].

ويستنبط **سبينوزا** خصائص الله وصفاته بالطريقة نفسها التي نستخلص فيها الخصائص الهندسية للمثلثات، كقولنا في نظرية "**فيثاغورس**" إذا كان المثلث **ABC** قائم فإن مربع الوتر يساوي مجموع مربعي طولي الضلعين الآخرين. ففي قضاياه عن وحدة الوجود نجد هذا الأسلوب اللغوي المركز والمختزل نحو قوله مثلا: "الله أزلي أي أن جميع صفاته أزلية."[3]

ولقد عمم "**سبينوزا**" المنهج الهندسي ليدرس كل شيء بمنظار رياضي حتى عالم الانفعالات والمشاعر يعالجها بالطريقة نفسها التي نتعامل فيها مع الأشكال الهندسية، كالخط والمثلث والمربع. ولقد لاحظ الكثير من شراح "**سبينوزا**" بأن النية الدفينة من وراء استخدامه للمنهج الهندسي هو الاقتراب من الموضوعية والحقيقة، والابتعاد عن الذاتية وتأسيس الفلسفة كممارسة عقلية صارمة[4].

ثانيا : تقييم الميتودولوجيا السبينوزية:

أ – الكعب الآخلي للميتودولوجيا السبينوزية:

إن "**سبينوزا**" أقام فلسفته ميتودولوجيا على التصورات التي وضعها **إقليدس** في كتابه العناصر *les Éléments d'Euclide*، وهي تحمل تصورات كلاسيكية عن المكان واللغة الرياضية غير أنه بعد معطيات علمية جديدة وتحولات براديغمية هائلة في العقل الهندسي صار ضرب من العبث

1- باروخ سبينوزا، علم الأخلاق، ترجمة جلال الدين سعيد، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، 2009 ص 34.

2 - المصدر نفسه ص 40.

3- المصدر نفسه ص 55.

4 MICHEL HENRY, LE bonheur de Spinoza, PUF, Paris,1re édition, 2004, P 13

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تأسيس نظريات أنطولوجية ضخمة على منهج أفل عصره، خاصة بعد ظهور الهندسة اللاإقليدية ***la géométrie non euclidienne*** المتمثلة في هندسة القطع الزائد ***La géométrie hyperbolique*** **للروسي** "**لوباتشفسكي**" والهندسة الدائرية ***La géométrie elliptique*** **عند** "**ريمان**" كما أن المنهج الرياضي إذ ما طبقناه على العلوم المعيارية نكون قد حملناه ما لا يطيق، فكل منهج وله خصوصيته التي ينبغي أن تنسجم مع موضوعه. وتضيف التيارات الما بعد حداثية ناقدة السبينوزية مقرة بأن مشكل الحقيقة ليس مشكل انسجام منطقي داخلي، وتوافق مع النظام الخارجي للأشياء. إذ لا يمكن عزل الحقيقة عن الإطار الجدلي الذي ينخرط فيه العقل مع الواقع الاجتماعي والسياسي والمؤسساتي والثقافي.

ينتقد هيجل الفلسفة السبينوزية قائلا بأن خطأها هو أنها بدأت بالجوهر، فهنالك خطأ في اعتمادها على نقطة الانطلاق، والفلسفة عنده لا يوجد لها نقطة انطلاق.[1] وعند بعض المعلقين أنه كان له بالأحرى أن يبدأ بالكائن المتناهي ليصل إلى اللامتناهي بشكل تصاعدي لا تنازلي كما نجد عند "ديكارت" مثلا.

ب- صدى الميتودولوجيا السبينوزية على الفلسفات اللاحقة: كيف استقبلت الفلسفة السبينوزية في الساحة الفلسفية العالمية؟ وهل يمكن الحديث عن فلسفة ما بعد- سبينوزية *la philosophie post-spinozienne* ؟.

لقد كان للميتودولوجيا السبنوزية تأثير كبير على فلاسفة أروبا فمثلا نجد تناصا قويا بينه وبين "**إيمانويل ليفيناس**" في مؤلف الكلية واللاتناهي (*totalité et infini*)، والإتيقا كفلسفة أولى (*L'Ethique comme philosophie première*) حيث دعا "**ليفيناس**" لتأسيس إتيقا للإتيقا. كما نلمس تناصا بين كتابه قراءات تلمودية جديدة (*Nouvelles lectures talmudiques*) ومنهج "**سبينوزا**" في قراءة العهد القديم.

1-André DOZ, Parcours philosophique d'Aristote à Heidegger, tome2, l'harmattan, paris, 2001 p 164 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لقد كانت الدراسات التاريخية التي قام بها "**سبينوزا**" للأناجيل في البحث اللاهوتي السياسي استباقا للبحوث التاريخية المقارنة التي لم يبدأ ظهورها في هذا الميدان، إلا منذ القرن التاسع عشر. ومن الممكن أن يعد بحق رائدا لعلم التحليل التاريخي للأناجيل في عصر لم تكن مجرد فكرة التفسير التاريخي للظواهر الاجتماعية تخطر على بال أحد[1]. كما سبق "فرويد" في تحليل عالم الانفعالات، وكذا في ربط الكثير من الأفكار الدينية بالخوف والجهل اللذان اعتبرهما "بترند راسل" منشأ الدين.

شهدت السبينوزية ازدهارا في ألمانيا القرن الثامن عشر وبدأ النقاش حول فلسفته فقال "**هيجل**": "إما السبينوزية أو لا فلسفة على الإطلاق."[2] وكما تأثر به "**هوسرل**" في مؤلفه "الفلسفة علما دقيقا" حيث أراد أن يؤسس منهجا على الطريقة السبينوزية لتكون صارمة مثل أي علم دقيق. وعند "**لايبنتز**" فلقد أتمم مشوار **سبينوزا** نحو محاولة ترييض الفلسفة وبنائها على أسس عالمية حينما دعا إلي استخدام لغة كوسموبوليتية توحد الكائنات العاقلة والتي تتمظهر في اللغة الرياضية الصورية.

نجح "**سبينوزا**" كفيلسوف عقلاني ديكارتي في إرساء ميتودولوجيا خاصة به تتميز بعدة خصائص أهمها أنها مرتبطة بالنسق، فلا يمكن فصل ما هو معرفي عن ما هو ميتودولوجي عند "**سبينوزا**"، كما أنه أفلح في تجاوز التفسير المجازي للنص *L'exégèse allégorique* عن طريق النقد الجذري للعهد القديم. وجدت دعوته ترحيبا كبير لما أكد على ضرورة تأسيس لاهوت جديد، تحكمه شروطُ القراءة النقديّة التاريخيّة للكتب المقدّسة التي تعتبر النص ذا مصدر أنثروبولوجي تكون لدى جماعة تاريخية معينة، وليس ذا مصدر ترنسندنتالي. كما يعود الفضل إلى هذه الميتودولوجيا في تجسيد الروح الفردية في التأويل، بعيد عن السلط الكهنوتية والمجامع الحاخامية، كما أنه متمم للخط التنويري للفلسفة الحديثة. كما تميزت هذه

1- فؤاد زكريا ، إسبينوزا ، دار الوفاء ، الإسكندرية ، ط 1 ، 2009، ص 101.

2- المرجع نفسه ص 133.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الميتودولوجيا بانطلاقها من الله لا من الإنسان أو الذات العارفة، كما هي القضية عند ديكارت الذي بدأ فلسفته بالانا أو بالكوجيتو.

بسبب هذا يعتبر **سبينوزا** من جهة أحد أكبر عمالقة العقلانية من جهة وعميد التنوير، وفي الضفة الأخرى اعتبرته الكنيسة الكاثوليكية الرومانية "شيطانا ملحدا آثما"، كما أدرجت كتبه في قائمة الكتب المحظورة المحرم دراستها. كما يجدر بالذكر أن معظم الكتب التي ألفها نشرت بصفة رسمية بعد وفاته، وهذا يشير إلى مدى قوة الصراع بين الأطر الثقافية لعصره وما كان يدعو إليه "**سبينوزا**" من نقد المقدس والتفسير العقلاني وأن مساحة اللا نص أكبر من النص.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com